حكايات من التاريخ

٧

فتركه وخرج هارباً

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

وخَرَجَ هَارِباً!!

أَسَرَّ (عَاصِمٌ) لِصَديقِهِ (خَالِدٍ) حُبَّهُ الشَّدِيْدَ لِمُطَالَعَةِ الكُتُبِ الَّتِيْ تَحوِي القِصَصَ ه خاصَّةً التُّراثيَّةَ منْهَا... ولَكِنَّ وَضْعَ أَهْلِهِ المَالِيَّ لا يَسْمَحُ لَهُ بِشِراءِ تِلْكَ الكُتُبِ، فَقالَ (خَالِدٌ): وأنا لدَيَّ حَلٌّ لِمُشْكِلَتِكَ يا عَاصِمٌ!

قالَ (عاصِمٌ): هَاتِ ما لَدَيْكَ... أَسْرِع يَا خَالِدُ..!

فَقَالَ (خَالِدٌ): إِنَّه المَرْكَزُ الثقافِيُّ، حَيثُ فِيْهِ قَاعَةٌ خاصَّةٌ لِلْمُطَالَعَةِ العَامَّةِ، وَهُوَ

يَحْوِي عَدَداً كَبِيْراً مِنَ الكُتُبِ المُخْتَصَّةِ بالقِصَصِ.

واتَّفَقا على اللِّقَاءِ في السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ صَبِيْحَةِ يَوْمِ غَدٍ ، وأمَامَ بَابِ المَرْكَزِ.. وهكذا كانَ ، ولما دَخَلا إلى القاعَةِ الكَبِيرَةِ؛ هَمَسَ (خَالِدٌ) في أُذُنِ صَدِيْقِهِ (عَاصِمٍ): هَذَا هُوَ جَنَاحُ كُتُبِ التُّراثِ ، وباسْتِطاعَتِكَ أَنْ تَسْتَعِيْرَ أيّاً مِنْهَا...!

وَوَقَفَ (عَاصِمٌ) طَوِيْلاً أمَام رفُوفِ المَكْتَبَةِ ، ثُمَّ اخْتَارَ كِتَاباً ، فحَمَلَهُ ، وَجَلَس على الكُرْسِيِّ ، وَرَاحَ يَتَصَفَّحُ مَا فِيْهِ ، وكانَتْ أُوْلَىٰ الحِكاياتِ الَّتِي قرَأهَا هَذِهِ الحِكَايَةَ:

روَىٰ (يَعْقُوبُ الشَّحَّامُ) قالَ:

قالَ لِيْ أَبُو الهُذَيْلِ: أنَّ رَجُلاً يَهُوْدِيّاً قَدِمَ

البَصْرَةَ ، وَقَدْ قَطَع ، وغَلَبَ عامَّةَ مُتَكَلِّمِيْهِمْ..

فَقُلْتُ لِعَمِّي: امْضِ بِنَا إلى هَذَا اليَهُودِيِّ أُكَلِّمُهُ.

فَقَال: يَا بُنَيَّ! هذا قَدْ غَلَبَ جَماعَةَ مُتَكَلِّمي البَصْرَةِ!

فَقُلْتُ: لَابُدَّ! فأَخَذَ بِيَدِيْ ، فَدَخَلْنَا على اليَهُوْدِيِّ ، فوَجَدْتُهُ يُقَرِّرُ للنَّاسِ الَّذِيْنَ يُكَلِّمُوْنَهُ نُبوَّةَ مُوسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، ثُمَّ يَجْحَدُ ـ يُنْكِرُ ـ نُبُوَّةَ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَقُوْلُ: نَحْنُ على ما اتَّفَقْنا مِنْ نُبُوَّةِ مُوْسى إلى أن نَتَّفِقَ علَى غَيْرِهِ فنُقِرُّ بِهِ!

فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ ، أو تَسْأَلُنِي؟

فَقَالَ: يا بُنَيَّ! أَو ما تَرَىٰ مَا أَفْعَلُهُ بِمَشَايِخِكَ؟!

فَقُلْتُ: دَعْ عَنْكَ هَذا واخْتَرْ!

قالَ: بلْ أسْألُكَ! أَخْبِرْني أَلَيْس مُوْسَى نَبِيّاً مِنْ أَنْبيَاءِ اللهِ قَدْ صَحَّتْ نُبُوَّتُهُ ، وثَبَتَ دَلِيْلُهُ؟ تُقِرُّ بِهَذا أوْ تَجحدُه ، فَتُخَالِفُ صَاحِبَكَ؟!

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الَّذِيْ سأَلْتَنِيْ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ مُوسى عِنْدِيْ عَلَى أَمْرَيْنِ:

أَحَدِهمَا: إِنِّي أُقِرُّ بِنُبوَّةِ مُوسى الَّذي أخْبَرَ بِصِحَّةِ نُبُوَّةِ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وأَمرَنَا باتِّباعِهِ ، وبَشَّرَ بِنُبُوَّتِهِ ، فإِنْ كان عَنْ هَذَا تَسْأَلني؛ فأنَا مُقِرٌّ بِنُبُوَّتِهِ.

وإِنْ كان الَّذِي سأَلْتَنِيْ عَنْهُ لا يُقِرُّ بِنُبُوةِ

نَبِيِّنَا مُحَمدٍ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ وسَلامُهُ ـ وَلَمْ يَأْمُرْ باتِّبَاعِهِ ، ولا بَشَّرَ بِهِ؛ فَلَسْتُ أَعْرِفُهُ ، ولا أُقِرُّ بِنُبـوَّتِـهِ ، وَهُـوَ عِنْـدِي شَيْطـانٌ مَخْزِيٌّ...!

فتَحَيَّرَ مِمَّا قُلْتُ لَهُ ، فَقال لِيْ: فَمَا تَقُوْلُ في التَّوْرَاةِ؟

فَقُلْتُ: أَمْرُ التَّوْرَاة أيضاً عِنْدِي على وَجْهَيْنِ:

إنْ كانَتِ التَّوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ علَى مُوْسى الَّذِي أَقَرَّ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ـ فَهِيَ التَّوْرَاةُ الحَقُّ ، وإنْ كانَتِ الَّذِي تَدَّعِيْهِ؛ فَبَاطِلٌ ، وأنا غَيْرُ مُصَدِّقٍ بِهَا...!

فَقَالَ: أحْتَاجُ أَنْ أَقُوْلَ لَكَ شَيئاً بَيْنِيْ وبَيْنَك! فَظَنَنْت: أَنَّهُ يَقُولُ شَيئاً مِنَ الخَيْرِ ، فتَقَدَّمْتَ إِلَيْهِ ، فَسَارَّني ، وقالَ: أُمُّك كَذَا

وكَذَا ، وأُمُّ الذي عَلَّمَكَ كَذَا وكَذَا.

وراح يَسُبُّ ، ويَشْتُمُ ، ظنّاً مِنْهُ أَنِّي سأهْجُمُ عَلَيْهِ و.... فَيَكُوْنُ مَعَهُ حُجَّةٌ في ذَلِكَ.

ولكنِّي أَقْبَلْت عَلَى مَنْ كان في المَجْلِسِ ، فَقُلْتُ: أعَزَّكُمُ الله ، أَلَيْسَ قَدْ أجبتُهُ؟!

قالُوا: بَلَى!

فَقُلْتُ: أَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ جوابي؟

فَقَالُوا: بَلَىٰ؟

فَقُلْتُ: إِنَّه لَمَّا سَارَّني شَتَمَني ، وشَتَمَ مَنْ عَلَّمَنِي ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنِّي سأهْجُمُ علَيْهِ.

لَكِنْ يَكْفي أَنِّي أعْلَمْتُكُمْ بِخَبَرِهِ.

فَقَامُوا إِلَيْهِ ، وَضَرَبُوهُ بالنِّعَالِ ، فخَرَجَ هَارِباً مِنَ البَصْرةِ ، وَقَد كانَ لَهُ بِهَا دَيْنٌ

كَثِيرٌ ، فَتَرَكَهُ ، وخَرَج هارِباً لِمَا لَحِقَهُ مِنَ الانْقِطَاعِ...!

لَيْسَ لَكَ عِنْدِي دَواءٌ إلا...!!

وَنَسِيَ (عَاصِمٌ) نَفْسَهُ وَهُوَ يَقْرأُ في ذَاْكَ الْكِتَابِ ، لكِنَّ الشَّيْءَ الجَمِيْلَ: أَنَّهُ سَجَّل على دَفْتَرِه الخَاصِّ ما أعْجَبَهُ مِنْ حِكايَاتٍ ، فِيْهَا العِبَرُ ، والعِظَاتُ ، وكانَ مِنْهَا هذِهِ الحِكَايَةُ التُّراثِيَّةُ:

رَوَى الإمـــامُ الشَّـــافعـــيُّ ـ رَحِمَـــهُ الله تعالى ـ هَذِهِ الحِكَايَةَ:

كانَ مَلِكٌ في الزَّمَانِ الأوَّلِ ، وكانَ مُثْقَلاً كَثِير الشَّحْمِ ـ سَمِيْنٌ ـ لا يُنْتَفَعُ بِهِ... فَجَمعَ المُتَطَبِّبِيْنَ ، وَقَالَ لَهُمْ: احْتَالُوا إليَّ حِيْلَةٍ تُخَفِّفُ عَنِّي لَحْمِي هَذَا..!

وَرَاح كُـلُّ واحـدٍ مِنْهُـمْ يُقَـدِّمُ لِلْمَلـكِ اقتِراحاً... ، لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يُقَدِّمْ.. ولَمْ يُؤَخِّرْ... ولَمَّا يَئِسَ المَلِكُ مِنْهُم: سَألَ كِبَار مُسْتَشَارِيْهِ عَنْ ذلكَ فَدَلُّوهُ عَلى أَدِيْبٍ مُتَطَبِّبٍ.

فجيءَ بِهِ ، ومَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: عالِجْنِيْ ، وَلَك ما تَتَمنَّىٰ...!

فَقَالَ الأدِيْبُ الطَّبِيبُ: أَصْلحَ اللهُ المَلِكَ! أَنَا مُتَطَبِّبٌ مُنَجِّمٌ ، دَعْنِيْ حَتَّى أَنْظُرَ اللَّيْلَةَ في طَالِعِكَ ، وأَيِّ دَواءٍ يُوافِقُ طَالعَكَ ، فأَسْقيكَ!

قالَ: فَغدا عَلَيْهِ ، فقالَ: أَيُّها المَلِكُ ، الأَمانَ! الأَمانَ!

قالَ المَلِكُ: الأَمانَ! هاتِ مَا عِنْدَك!

قالَ: رأَيْتُ طَالِعَكَ يَدُلُّ على أنَّ البَاقِي مِنْ عمْرِكَ شَهْرٌ... فإِنْ أَحْبَبْتَ عَالَجْتُكَ ، وإِنْ

أرَدْتَ بَيَانَ ذَلِكَ ، فاحبِسْنِيْ عِنْدَك ، فإنْ كانَ لِقَوْلِيْ حَقِيْقَةٌ ، فَخَلِّ عَنِّي ـ اتْرُكْنِي ـ وإلا فَعاقِبْنِي...!

قالَ: فَحَبَسَهُ.

وأَصْدَرَ المَلِكُ الأَوَامِرَ ، فَرُفِعَتِ المَلاهِيْ ، واحْتَجَبَ عَنِ النَّاسِ ، وخَلا وَحْدَهُ ، مُهْتَمّاً حَزِيناً... وكُلَّما انْسلَخَ يَوْمٌ ازْدَادَ غَمّاً ، حَتَّى هزُلَ وَخَفَّ لَحْمُهُ.

ومَضَى لِذَلِكَ ثَمَانٌ وعِشْرُونَ يَوْماً ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ ، وأَخْرَجَهُ.

فَقالَ: مَا تَرَى؟

قالَ: أَعزَّ اللهُ المَلِكَ! أَنَا أَهْوَنُ عَلى اللهِ ـ عـزَّ وجَـلَّ ـ مِـنْ أَنْ أَعْلَـمَ الغَيْـبَ واللهِ! ما أَعْرِفُ عُمْرِي ، فَكَيْفَ أَعْرِفُ عُمْرَكَ؟!

فَقَالَ المَلِكُ: فَمَاذَا إِذاً؟!

قالَ الأَدِيْبُ الطَّبِيْبُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي دَواءٌ إلا الغَمُّ ، فَلَمْ أَقْدِرْ أَنْ أَجْلِبَ إِلَيْكَ الغَمَّ إلا بهذهِ العِلَّةِ...!

وهَكَـذا نَجَحَـتِ الحِيْلَـةُ ، وخَـفَّ وَزْنُ المَلِكِ ، وذَابَ شَحْمُهُ... فَمَا كانَ مِنْهُ إلا أَنْ أَحْسَنَ إلى هذا الطَّبِيْبِ الأَديبِ ، وأَعْطَاهُ الشَّيءَ الكَثِيرَ...!

حِكَاياتٌ... وَلكِنَّها قَصيرَةٌ

وَلكِنَّ (عَاصِماً) انْتَبَه إلى أَمْرٍ رَائِعٍ ، وهُوَ: أَنَّ الكاتِبَ جَمَع بَيْنَ دَفَّتَيْ كِتَابِهِ مَجْمُوعَةً مِنَ الحِكَايَاتِ القَصِيْرَةَ ، والَّتي تَدُلُّ عَلَى الذَّكَاءِ ، وحُسْنِ التَّصَرُّفِ... فَسَجَّلَ بَعْضَهَا... وقَرَّرَ في نَفْسِهِ أن يَحْفَظَها عَنْ

ظَهْرِ قَلْبٍ ، لِيُحدِّثَ بِهَا أَهْلَهُ ، وأصْدِقَاءَهُ ، وكانَ مِنْهَا:

أَقْبَلَ أعْرَابيٌّ يُرِيْدُ رَجُلاً ، وكانَ بَيْنَ يَدَي الرَّجُلِ طَبَقاً فِيْهِ تِيْنٌ ، فَلَمَّا أَبْصَرَ الرَّجُلُ الأَعْرابيَّ؛ غَطَّى التِّيْنَ بِكِسَائِهِ:

وكانَ الأَعْرَابيُّ يُلاحِظُ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَلَس بَيْنَ يَدَيْهِ ، قالَ لَهُ الرَّجُلُ: هَلْ تُحْسِنُ مِنَ القُرْآنِ شَيْئاً؟

قالَ الأَعْرابيُّ: نَعَمْ!

قالَ: فاقْرَأْ عَلَيْنَا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ.

فَقَرَأ الأعْرَابيُّ: ﴿وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾.

فقَال الرَّجُلُ: فأَيْنَ التِّيْنُ يَا هَذَا؟

قالَ الأَعْرَابيُّ: التِّيْنِ تَحْتَ كِسَائِكَ!!

.... وَقِيْلَ: وَلِيَ أَعْرَابيٌّ البَحْرَيْن ، فَجَمَعَ

يَهُوْدَهَا ، وقَالَ لَهُمْ: مَا تَقُوْلُوْنَ في عِيسَى ابْنِ مَرْيمَ؟

قالُوا: نَحْنُ صَلَبْنَاهُ... وَقَتَلْنَاهُ!

فَقال الأعْرَابيُّ: لا جَرَم! فَهَلْ أَدَّيْتُمْ دِيَتَهُ؟

فقَالُوا: لاَ.

فَقَالَ الأَعْرَابيُّ: والله لا تَخْرُجُوْنَ مِنْ عِنْدِي حَتَّى تُؤَدُّوا إِليَّ دِيَتَهُ... فَمَا خَرَجُوا [illegible]

* * *

... وحُكيَ: أَنَّ (إيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَة) تَقَدَّمَ وَهُوَ صَبِيٌّ إِلى قَاضِيْ دِمَشْقَ؛ وَمَعَهُ شَيْخٌ.

فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ القَاضِيَ! هَذَا الشَّيْخُ ظَلَمَنِيْ ، واعْتَدَى عَلَيَّ ، وأَخَذَ مَالِي.

فَقَالَ القَاضي: ارْفُقْ بهِ ، ولا تَسْتَقبِلِ

الشّيْخَ بِمِثْلِ هَذَا الكلامِ!

فَقَالَ إيَاسٌ: أَصْلَحَ اللهُ القَاضِيَ! إنَّ الحَقَّ أَكْبرُ مِنِّي ، وَمِنْهُ ، وَمِنْكَ!

قالَ: اسْكُتْ!

فَقَالَ: إنْ سَكَتُّ؛ فَمَنْ يَقُوْمُ بِحُجَّتِي؟!

قالَ القَاضِي: تَكَلَّم بِخيْرٍ...!

فَقَالَ إيَاس: لا إلهَ إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ..!

فَـرُفِـعَ الخَبَـرُ إلـى الخَلِيْفَـةِ ، فَعَـزَل القَاضِيَ ، وَولَّى مَكَانَهُ إيَاسَاً!!!

* * *

.... وَوَقَـفَ الخَلِيْفَـةُ (المَهْـدِيُّ) علـى عَجُوْزٍ مِنَ العَرَبِ ، فَقَالَ لَهَا: مِمَّنْ أَنْتِ؟

قالَتْ: مِنْ قَبِيْلَةِ طَيِّيءٍ.

فَقَالَ: مَا مَنَعَ طَيِّئاً أَنْ يَكُونَ فِيْهِمْ آخَرُ مِثْلَ حَاتَمٍ؟

فَقَالَتْ مُسْرِعَةً: الَّذِي مَنَعَ المُلوْكَ أَنْ يَكُوْنَ مِثْلُكَ..!

فَعَجِبَ المَهْدِيُّ مِنْ سُرْعَةِ بَدِيْهَتِها ، وأَمَرَ لها بِهَدَايَا ، وأَمْوَالٍ كَثِيْرَةٍ...

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * *